تأملات فى الفن :

يا علماءنا ... نريد أن نعرف !

للأســـتاذ عزيز أحمد فهمى

— خذ كل من هذا الحمص . إنه من السيد البدوى

— وهل كنت فى طنطا ؟

— نعم . ضيفة عند ناس

— أو لم يعجبك شىء فى طنطا غير الحمص ؟

— السمن هناك جيد ، والخضار أجود

— همَّ يطنك ولا شىء يشغلك غيره ، ألم تفكرى فى زيارة السيد البدوى الذى تأكلين حمصه هذا ؟

— زرته . ولم أنس أن أدعوه لك

— شكراً . فلست أدعو غير الله ... أو لم يعجبك شىء فى مسجد السيد البدوى ؟

— لا أذكر ، فهو مسجد كبقية مساجد ربنا

— صحيح . ولكن فيه منبراً هو نفسه صلاة صامتة قائمة دائمة

— يا سلام ... لم يلفتنى أحد إليه

— وعيناك هاتان المبرقتان تحملقان ولكنهما لا تريان . امرأة ! ...

— تركنا منبر السيد البدوى وعدنا إلى امرأة ورجل ، مالها الامرأة ؟ كل ما حدث أنى شغلت عن النظر إلى المنبر بالنظر إلى السيد نفسه ...

— ولا السيد . بل قولى إلى الزوار

— آى ، كنت أنظر إلى الزوار . أليس فى النظر إلى الرجاء المتألق فى وجوههم لذة ؟

— وأى لذة عند المرأة أحلى من أن ترى الرجاء متألقاً فى وجهه

— كان الزوار كلهن نساء

— ولماذا هذا التخصيص ، ولماذا أسرع إلى ذهنك هذا الخاطر السيء فتسرعى إلى إنكاره بهذا الحسم الجازم... أفتظنين أنك هربت من السوء إلا إلى الأسوأ ؟

— وهل يسوء مجتمع النساء أكثر مما يسوء إذا اختلطن بالرجال ؟

— من غير شك . فهن بين الرجال قد يخجلن فيحتشمن ، ولكنهن إذا انفردن انطلقن تتفرس كل منهن فى الأخرى . وتفترس كل منهن الأخرى . وما أعجبها إذن مممعة حين تشب فى ضريح أو مسجد ، ينقلب المسجد من مطهرة إلى ... إلى مدرسة !

— مدرسة ؟ ! على أى شكراً لله فقد توقعت أن تقول شيئاً آخر ... ولكن لماذا تقول إن اجتماعنا فى المسجد يقلبه إلى مدرسة ...

— لأنكن بطبيعتكن، إما أن تكن تلميذات، وإما أن تكن معلمات، ولا يمكنكن أن تكن غير ذلك إلا إذا فسدت طبيعتكن. فإذا وصف إنسان اجتماعاً من اجتماعا تكن بأنه مدرسة كان يبغى وصفه هذا على خير الفروض فيكن ...

— كلامك محتاج إلى برهان

— هذا يحتاج برهاناً ؟ لا بأس ... اسمعى ... منبر السيد البدوى ...

— عدنا إلى منبر السيد البدوى ... لن نعود إلى ذكره حتى ننتهى مما كنا فيه ...

— سننتهى منه ومما كنا فيه معاً ... أريد أن أقول لك إنه آية فنية رائعة ، وإنه على ضخامة حجمه وتعقيد تركيبه ، مؤلف من قطع صغيرة التحم بعضها إلى بعض من غير غراء ولا صمغ ولا مسمار واحد، وإنه صنع فى عهد واحد من الخديويين المتأخرين. ولقد أقيم للأستاذ الذى صنعه استوديو أو « أتيليه » خاص كان مؤلفاً من عدة خيام ، وإن الخديو طلب يوماً أن يشرف هذا الاستوديو بالزيارة ليشاهد المنبر أثناء تأليفه ، فاعتذر الأستاذ بأنه لا يستطيع أن يعمل إذا كان عليه رقيب غير الله ... كما أنه لا يستطيع أن يصلى وبينه وبين القبلة إنسان ممتنع عن الصلاة جالس أو واقف ينظر إليه ويحصى عليه حركاته وسكناته ... فهو

لا ريب يشغله ويعوقه عن إحسان الصلاة على الأقل ...

— عجيبة ! ومن هو هذا الأستاذ الفيلسوف ، وماذا كان رد الخديو عليه ...

— ما كان الخديو محب الفن إلا ليقدر مثل هذا الاعتذار وأن يجيزه إكراماً لفن الأستاذ « على جَلَّط » !

— على ماذا ؟ جلط ؟ ! باله من اسم مضحك !

— و «ميكيلانج» أليس اسماً مضحكا ؟ ! أَلِأن علياً مصرى تضحكين من اسمه، ولأن الآخر من سادتكم أهل الغرب تستسيغين اسمه على ما فيه من عجمة؟... إن ميكيلانج وميكى ماوس ليسا من أسمائنا ، وإنه من أسمائنا « جلط » ، وبهنس ، وغلوش ، وزينهم وما أشبه ... فلماذا نتحرج من أسمائنا ونضحك منها ساخرين ، وحقنا أن نضحك — إن ضحكنا — معجبين بما فيها من النكتة فلا ريب أن هذه الأسماء الغريبة لا تطلق فى مصر إلا لمناسبات

— أريد أن أسألك عن هذه المناسبات ، ولكنى أخشى أن نخرج من الأستاذ على إليها ، فلا نعود منها ، وقد كنا قبل هذا وذاك فى موضوع آخر هو موضوع « المدرسة » ، الذى أظن أنك لا تزال تذكر أننا تركناه معلقاً ...

— امرأة مرة أخرى : لا تتفل ولا تنسى ، وهو من شروط التلميذة الناجحة . والمعلمة البارعة ... أما الأستاذ على يا أبلة ، فلعلهم لقبوه بلقبه ، لأنه « جلط » يوماً لحيته بزجاجة أو حدث منه شىء كهذا ... وأما متبره يا آنستى ، فهو الآية الفنية التى لا يمكن أن توصف ، وإنما يجب أن ترى وأن تدرس ، وأما أنت فامرأة ، ولم تلتفتى إلى هذه الآية الفنية العجيبة ، لأن أحداً لم يلفتك إليها ، وهذا شأن التلميذات ، وأنا أراهن أنك إذا زرت السيد البدوى بعد اليوم ، فإنك ستصحبين صاحبة أو اثنتين ، لا لشىء ، إلا أن تلفتيهما أنت إلى المنبر لتكوني لهما معلمة وتكونا هما تلميذتين ، ولست أراهن على هذا إلا لثقتى منه، ولست واثقاً منه إلا لعلمى بأنه شىء فى طبعكن ، فالله أعدكن لتكن أمهات ، والأمهات مربيات ، والمربيات معلمات ، والمعلمات يكن تلميذات قبل أن يصبحن معلمات ... ولا شىء غير هذا يا زين البنات ...

— تلفيقات وترهات ! فنحن أكثر مما تظن ، فنا الآن مهندسات وطبيبات وفنانات ومحاميات ... كما أنه منا معلمات !

— هؤلاء جميعاً تلميذات ، حتى المعلمات ... كى ترتاحى وتسكتى ...

— أسكت ؟ إن سكت عن خطل الرأى ، فلن أسكت عن تراجعك وانتقاضك على ما سبقت وقررته ... كيف أسكت وقد رددت المعلمات تلميذات ؟ !

— لأنهن هكذا ، فليست فيهن واحدة . . . لها طريقة خاصة بها فى مهنتها أو فنها ... وعلى الرغم من أن الله قد أعدهن ليكن معلمات ، فإنهن لا يعلمن إلا ما تعلمن ...

— وهل تريدهن يعلمن ما لم يعلمن ؟ ...

— أفهن لا يعلمن إلا إذا تعلمن ؟ ... لماذا لا يتعلمن هكذا من الحياة رأساً ... أفنامت عقولهن عن تجاربهن وخبرتهن ومشاهدتهن فى كل شأن من شئون الدنيا إلا المسألة الدنيا ؟

— كلا ! إنى لا أوافقك فى هذا . فإن فينا إمامات وعلى الخصوص فى التربية وفى الفنون . كيف يمكنك أن تجحد التربية مونتسورى ، والممثلة جربتا جاربو ، والمغنية جريس مور ، والراقصة جنجر روجرز و ... و ... و ...

— أما مونتسورى فمعلمة جاد بها الزمن فى القرن العشرين بعد أن ظل الزمن يجود بالمعلمين من قبل سقراط وأرسطو . وعلى أى حال فإن مدام مونتسورى لا تزيد على أن تكون مخترعة لبعض ألاعيب الأطفال . وأما الباقيات اللواتى ذكرتهن هؤلاء فلا أزال أقول إنهن تلميذات فجربتا جاربو لم تكن شيئاً قبل أن يكتشفها أستاذها المخرج السويدى الذى نسيت اسمه وأظن أنك تذكرينه ، وأما جريس مور فإنى أتحداها أن تغنى شيئاً إذا لم يلحن لها الملحنون الأغانى ، وأما تلك التى ترقص كالعفاريت التى اسمها جنجر روجرز فقد جربت أن تنفصل عن أستاذها فريد أستر فأخفقت فعادت إليه ومع ذلك فهى لا تزال تتطاول عليه وتقول عنه إذا ذكرتها إنه زميلها وليس قائدها وأستاذها ...

— وكاى فرانسيس التى تحبها ؟

— أنا أحب عينيها أكثر مما أحب فنها

— عينيها ؟ ! لقد قلت مرات إنها ممثلة نابغة

— لو لم يهبها الله هاتين العينين ما كانت نابغة وما كانت ممثلة . هما عينان لو رزقهما رجل لما استطاع إلا أن يكون قديساً ربانيا من غير ما شىء يمرقله . . . فيهما صفاء وشفافة فهما ينضحان

بما وراءها من فكرة أو عاطفة ، فصاحبهما لا يستطيع أن يكذب إلا إذا أغمضهما أو سبح بهما في الفضاء لا يوجههما إلى عيني محادثه ، وهذا شيء يدل على الكذب والصدق أهون منه ؛ فإذا داوم صاحب هذين العينين الصدق عجزاً عن الكذب في أول الأمر فإنه سيداومه بعد ذلك اعتياداً له ؛ ثم يداومه أخيراً حبّاً له ، والصدق كما قلت لك مرات هو الخطوة الأولى نحو الله ... وعلى هـذا كانت كاى فرانسيس بهاتين العينين مقصرة حين انتهى أمرها عند أن تكون ممثلة نابغة ... فهمتِ ؟ !

— إذن فقد انقلبت على نفسها إذ تمارس الآن الـكذب ؟ فليس التمثيل إلا الكذب

— لو كانت كاى فرنسيس تكذب ما كانت أعجبتني ، وإنما هي تصدق ، ولا تمثل إلا ما تحسه أو ما أحسته ، ولعلك تلحظين أنها لا تكثر من الظهور ، ولعلك أدركت أن سبب هذا هو أنها تنتظر حتى يوافيها الدور الذي يلائمها والذي تكون قد أحاطت بمثله في حياتها ... وحياتها كما أظنك تعرفين فيها ما فيها ، وأبرز ما فيها أنها تمثل بهاتين العينين الصافيتين الشفافتين ... فرغ الحمص . أليس معك غيره ؟

— خذ ، ولكن بعد أن تعترف ولو لـكاى فرنسيس وحدها بأنها أستاذة .

— ليس ما يمنعني من ذلك . فلها أن تكون أستاذة ، ولك أنت أيضاً ذلك إذا زرت منبر السيد مرة أخرى وأديت له حق التأمل والدرس والترحم على صانعه ، ولم يشغلك في زيارته النظر إلى الزائرات من أترابك والتحقق من ملبسهن وزينتهن ولغاتهن

— ولكنك قلت إن هذا من طبع المرأة

— هو طبعها في التلمذة ، وأنت تريدين أن تكوني أستاذة ، والأستاذة هي التي فرغت من النظر إلى غيرها وبدأت نفسها تفيض بما فيها ... وأظن أن المرأة لا تكره هذا إلا لسبب واحد ...

— ما هو هذا السبب أيضاً ؟

— هو خشيتها من الكبر ، فبهذه الخشية تدمن النظر إلى غيرها تخدع نفسها متخيلة أنها صغيرة لا تزال في حاجة إلى التعلم ... حتى إذا ما فاجأتها التجاعيد آمنت بأنها أستاذة ، ولكنها بعدئذ تقضي الحياة في حسرة بدلاً من أن تقضيها في عمل ... سنة الله التي شاءت لكن أن تقبعن في بيوتكن ...

— سأقبع ولن أزور المنبر ...

— زوريه أولا تزوريه ، فستعرف الدنيا خبره يوم ترق مصر ويبحث علماؤها عن تاريخ علي جلط ومحمد البقري وغيرهما من أهل الفن العربي الذي يقدره الغربيون حق قدره ويردون إلينا من أقصى الأرض وأدناها ليتعموا بمشاهدته ويأخذوا عنه ، حتى إذا سألونا عمن أنتجه من آبائنا قلنا : اللهم إنا لا نعرف

— أما الأستاذ علي فقد عرفته بمنبر السيد ، ولـكنك لم تذكر لي من هو محمد البقري ...

— صاحب الزخرفة العربية الرائعة التي يتحلى بهـا « بنك مصر » وتياترو حديقة الأزبكية ... وإذا كنت أنا أعرف هذين فإني أجهل صاحب السلطان حسن وصاحب مسجد القلعة والمؤيد والرفاعي ، وغير ذلك من الآثار العربية الخالدة ... فهل لك أن تسألي لي واحداً من علمائنا عنهم ؟ ...

— بإذن الله سأسأل ... ولكن لماذا لا تهتم أنت بتتبع أخبار هؤلاء وهو أمر شديد الصلة بعملك ؟ ...

— قد يكون هذا حقاً ، ولكن الوثائق تعوزني ، فإن أغلب الآثار العربية ، قد أرخت منسوبة إلى الملوك الذين أنشئت في عصورهم ، ولم تنسب إلى الفنانين الذين عصروها من دمائهم ، وقد جرينا على هذه السنة حتى في عصرنا الحديث فنحن لم نذكر « علي جلط » ولا « محمد البقري » في آثارهما مع أنهما محدثان قريبان وهما لم يعنيا بهـذا لأنهما كانا أخلص للفن من أمثالهما الغربيين ، ولم يكونا يسعيان بالفن إلى الذكر الباقي ولا إلى الربح المـادي ، وإنما كانا يؤديانه زكاة عما وهبهما الله من ملـكة وبصيرة ونظر . ولقد كانا يتعبدان به عبادة ، ولو أنه خطر لأحدهما أن يستغل فنه استغلالاً مادياً لخلف الأموال الطائلة والصيت الرنان ... ولـكن الواحد منهما كان لا يعمل إلا إذا احتاج إلى القوت ، فإذا عمل تفانى في عمله وجاء فيه بالمعجزات المحيرة .. وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، والذي إذا سئل عن نفسه قال إنه « نجار دِق » !

— فأي شيء هو ؟ ...

— إنه مهندس زخرفة ينفذ بيـده ما يتصوره عقله من غير أن يستعين على ذلك برسم التصميم على الورق ... وهذا شيء لا يستطيعه إنسان في الغرب وعلى الخصوص إذا تصدى للزخرفة العربية المجردة المعقدة المتجددة

فريد أحمد شوقي